هجرة الشباب ومؤامرة التوطين

بقلم مهى عون

النهار ٢٠٠٤/٨/٢٧: لم يطلعنا احد من مرشحي الرئاسة الى اليوم، على رأيه في هجرة الشباب، او برنامجه للحد من هذا النزف المتواصل الذي اصبح يهدد كيان الوطن. فالهجرة لم تعد تعني طبقة او فئة او مذهباً معيناً بل دخلت غالبية البيوت، وتحولت معاناة مضنية لا نهاية لها ولا أفق. والمعاناة تعدت الخلية العائلية المحدودة الاطر، وطاولت اسس المجتمع بالذات، وتلاشي العلاقات العائلية داخل الاسرة الواحدة، بسبب بعد المسافة وطول الغياب، انعكس على روابط القربى والنسب بين العائلات على مستوى اوسع، وصولا الى خلخلة وتفكك، الركائز الاجتماعية التقليدية، كالتضامن والتكاتف والعونة عند الشدة، وهي خصائص لطالما ميزت المجتمع اللبناني الصغير.

أما أسباب الهجرة فمعروفة وعلى كل شفة ولسان، لكن المسؤولين عن امور البلاد والعباد يغيبون هذا الموضوع الشائك، ولا يبالون بخطورة هذه السوسة الفتاكة الضاربة بمفاصل المجتمع. فالنزف الشبابي الذي يستفحل منذ اكثر من اثنتي عشر سنة، باتت ترافقه في شكل روتيني، وبين الفينة والاخرى، صحوة كلامية فجائية، لبعض الزعماء او الاقطاعيين او لرموزهم في السلطة، يأتون على موضوع الهجرة ولكن ضمن خطب خشبية، من اجل استقطاب الانتباه عبر ملامسة الجرح او مكمن الألم. من دون ان ننسى ايضاً "فوعة النق" التي تصيب بعض المراجع الدينية كل فترة والتي لا تلبث ان تهدأ وتستكين ليحفظ الموضوع من جديد في الملف المختص بالدرج الملائم. وهكذا دواليك.

ولكن الى أين والى متى؟

ان استمرار هذا النزف يمهد ليوم يفيق فيه الجميع على واقع جديد، وتركيبة اجتماعية مخالفة تماماً للتركيبة الاجتماعية الطبيعية المتوازنة طائفياً، وذات الفرادة المميزة. ولكن ربما بعد فوات الاوان، وبعد ان تكون قد استكملت فصول مؤامرة التهجير لمصلحة التوطين. إن اهمال خطورة هذا الموضوع، وادراجه في المراتب الثانوية في سلم اهتمامات السلطة الحالية، او تغييبه عن برامج المعارضة الطامحة للجلوس مكانها، هو بمثابة اهمال لمسألة تتناول بقاء الوطن او عدم بقائه والتاريخ خير محاسب. والسؤال ماذا فعلت الدولة الى الآن للحد من هذا النزف؟ وهل كان لها يوماً ما هاجس من هذا النوع اوجب خطة او برنامجاً ولم يستكمل؟

وغني عن الشرح والوصف ما يشكله تفريغ بلد ما من عنصره الشاب. وهو في الواقع وفي المختصر كتفريغ الجسد من الروح. فالشباب عصب الحياة وهم المستقبل. فمادا ننتظر من بلد لا يستند إلا على كهوله؟ وما مستقبل بلد لا يزال تداول السلطة فيه حكراً على جملة مترهلين لا يتورعون عن الصاق صورهم المنقحة والمروتشة على جدران المدن والقرى إبان الانتخابات؟ وما مستقبل بلد هجرته خيرة شبابه المثقف والكفي والطامح الى التغيير واللحاق بركب التطور والحضارة والتاريخ حافل، وكل يوم يأتينا بأخبار جديدة عن نجاحات الشباب اللبناني وتفوقه، في شتى الميادين في عالم الاغتراب. تفوق حُرِمَ الوطن اياه وسطعت انواره، وذاع صيته، تعربنت "لبننته" ام لم تتعربن.

ناهيك انه في استدامة تفقير الشعب وتهجير شبابه،تستدام سياسة ليّ الذراع ، وصولاً الى استكمال فصول مؤامرة التوطين، واذا تبين لاحقاً ان كل المساعي التفقيرية والتهجيرية المستفحلة منذ انتهاء الحرب لم تكن كافية، زائدة تصاعد الدين العام الى حد بات يخشى اللبناني ان يلد ولداً آخر كي لا يحمله وزر الدين المتراكم، فلم لا تكون عشر سنوات اخرى جديدة تنسحب على المنوال نفسه وتتبع النهج الظلامي ذاته؟ وبعد ليّ الذراع المؤلم لِمَ لا يكون الخنق الكامل من طريق الاذلال والتحقير وهتك الكرامات؟ ربما كانت هذه الوسيلة الاخيرة أفعل واجدى. فالانسان الكريم النفس والمثقف، لا تهمه لقمة العيش بقدر ما تؤثر به المهانة والظلم، فهي تصيبه بمقتل اكيد وتكفل تهجيره عن ارضه واهله وابعاده من دون رجعة.

إن خطة توطين الفلسطينيين حيث هم، او "مشروع كيسنجر" الذي بانت تباشيره عند بداية الحرب اللبنانية، وكان في مقدم مسبباتها، لم تكتمل فصوله بعد. ومبادرة السفير الاميركي دين براون لنقل اللبنانيين بواسطة البواخر الى اوستراليا وكندا، والتي خلقت ميتة في حينها، استبدلت بأشكال اخرىولكن ادهى، اذ عمد الى استكمال الترانسفير بواسطة التفقير والنزف الابطأولكن الاضمن. وكل مدة يأتينا وفد مكلف جس النبض، وقياس مدى نسبة الاختناق في دم اللبناني، ومدى تأخر معنوياته، وتراخي ممانعته، وتلاشي صموده. وكلام السيناتور الاميركي تشايس بالامس في فندق "لوريال" الضبيه، واضح ولا يحتاج الى اي تفسير او تأويل. فهو قال متوجهاً الى جميع اللبنانيين من خلال النواب الحاضرين في اللقاء حرفياً: "عليكم ان تقبلوا توطين الفلسطينيين لانه من غير المنطقي ان يعودوا الى اسرائيل، لما قد يسببه هذا الامر من خلل ديموغرافي يؤدي الى زوال الطابع اليهودي للدولة الاسرائيلية. ("النهار" ١٧ آب ٢٠٠٤).

هذا الموقف ليس جديداً وليس مستغرباً، فلطالما استشف اللبناني هذه النيات المبيتة تجاهه من الراعي الاكبر، يساعده في تنفيذها كل الرعاة المحليين والاقليميين، بمباركة ورضى من الصهيونية العالمية. وحذر اللبناني هذا ونقزته حيال هذه النوايا حملا السفير الاميركي فنسنت باتل على التساؤل، فيما كان مودعاً، عن اسباب هذه "الفوبيا" اللبنانية حيال الولايات المتحدة. وهو طبعاً آخر من يعلم. فهل تنجح سياسة الجزمة واستدامة التهجير والتفقير في كسر الارادة اللبنانية وصولاً الى التركيع، حيث فشلت حرب الخمسة عشر عاماً والمئتي الف قتيل؟